لسان الدين بن الخطيب

للعلامة الكبير الشيخ احمد الاسكندرى

استاذ الأدب العربى بدار العلوم

لسان الدين الخطيب آخر شاعر نابه من شعراء الاندلس، وأول شاعر فى الاسلام قتله أعداؤه وحرقوا جثته ، ومثلوا به ميتا . وقد استطاع الاستاذ الجليل الشيخ أحمد الاسكندرى أن يترجم حياته، و يحلل آثاره الشعرية فى أسلوب علمى دقيق، وكان من فضله أن يخص قراء (المعرفة) بهذه الثروة الادبية الضافية . وما من ريب فى أن (المعرفة) حين تشكر للاستاذ ذلك التفضل انما ترجو أن يكون لقرائها من ذلك اللون الطريف فى دراسة الشخصيات قدوة يتأثرونها واسوة يحتذونها.

المحرر

نسبه ومنشؤه

هو ذو الوزارتين الأديب الكاتب الشاعر الفقيه المتطبب المتفلسف المؤرخ أبو عبد الله محمد لسان الدين بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد الخطيب السلمانى . وسعيد الجد الأعلى أول من تلقب بالخطيب واشتهر اولاده ببنى الخطيب، وسلمان بطن من مراد من اليمانية نزلوا بعد الفتح بقرطبة ، ثم أجلاهم الأمير الحكم الأموى عنها مع من أجلى من الأعلام عند وقعة الربض المشهورة فنزلوا طليطلة ، ثم تشتتوا فى أواسط الأندلس حتى نزل أعقابهم ببلدة « لوشة » على مرحلة من غرناطة شمالا ، ثم نزل سعيد الجد الأقرب المترجم حاضرة « غرناطة » فحظى عند سلطانها ، ونشأ له ابنه عبد الله أبو المترجم ، فاستخدم لبنى الأحمر على مخازن الطعام وكان أديباً متطبباً واستشهد هو وابنه أخو لسان الدين فى الكارثة العظمى التي أنزلها الاسبان بجيوش المسلمين من دولتي بني مرين وبني الاحمر على ظاهر طريف سنة إحدى واربعين وسبعمائة .

ولد لسان الدين بغرناطة فى الخامس والعشرين من شهر رجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة ونشأ على حالة حسنة فحفظ القرآن الكريم وجوده . وقرأ العربية على أستاذ الجماعة « أبى الحسن الفيجاطي » والخطيب « أبى القاسم بن جزى » ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الامام « أبى عبد الله بن الفخار الأيرى » شيخ النحويين لعهده ، وتأدب بالرئيس « أبى الحسن بن الجياب » وأخذ الطب والفلسفة عن الامام « أبى زكريا يحيى بن هزيل » وتخرج فى كثير من العلوم .

تصرفه وخدمته في دولة بني الاحمر :

كان لسان الدين بن الخطيب في حياة أبيه على الدرجة في مناصب الدولة ، نافذ الامر والنهي ، فولاه سلطانه أمير المسلمين «أبو الحجاج يوسف بن الاحمر» باني الحمراء كتابة سره ولما يستكمل الشباب معززه بقيادة الجيوش ، ثم تولى وزارته بعد استاذه ابن الجياب . واستعمله في السفارة الى الملوك ، واستنابه عنه بدار ملكه ، ورمى الى يده بخاتمه وسيفه ، واستأمنه على صوان حضرته ، و بيت ماله ، وسجون حرمه ، ومعقل امتناعه ، فنهض بأعباء كل أولئك خير نهوض الي أن قتل سلطانه أبو الحجاج غيلة ، قتله أحد المغرورين وهو يصلي صلاة عيد الفطر سنة ٧٥٥ . فولى أمر الملك إبنه الاكبر أبو عبدالله محمد ، وكان له من أبيه أخوان شقيقان : أكبرهما «اسماعيل» والاصغر «قيس» فألزم اسماعيل وأمه قصراً من قلعة الحمراء بقرب قصره مرفها عليه ، متمتعة وظائفه له ، وكان لاسماعيل صهر من رؤساء بيت الملك فسعى له في الاستيلاء على ملك أخيه والتف عليه نحو مائة من ذؤبان الرجال . فانتهزوا فرصة تحول السلطان محمد وولده الي دار له في بستان خارج قلعة الحمراء للرياضة وترويح النفس . فتسوروا القلعة ليلا من جهة لم يكن تم بناؤها ، وقتلوا الحراس والحجاب وأطلقوا اسماعيل . وملكوا منافذ القلعة ، فوجد طرقها قد أخذت عليه ، وتضج بالسهام والحراب فلم يطق المقام . ونجا برأس طمرة ولجام ، فصبح مدينة وادي آش فدافع عنه أهلها نحو شهرين ، ثم ضعفوا لمبايعة كثر البلاد اسماعيل محمداً . فأتاه رسول صاحب المغرب أبو سالم المريني مستدعياً له الى حاضرة « فاس » فذهب اليه فأكرم مثواه .

نكبته الاولى

وقبض اسماعيل على لسان الدين واستصفى أمواله وعقاره فاستشفع له صاحب فى إطلاقه والاذن له فى الذهاب الى المغرب ، فأطلقه فذهب الى «عدوة» المغرب وتلقاه سلطانها بالقبول فأقام بالمغرب رذحا من الزمن يسبح فى بلدانه ثم ألقى العصا بمدينة «سلا» منتبذاً عن سلطانه المخلوع الى أن اضطرب قتل اسماعيل ، واستبد عليه صهره بالملك . فانتشرت الفتنة فى الاندلس وخرج علي هذا الرئيس « عثمان بن يحيي» شيخ الغزاة ، ودعا المخلوع ومن جلا اليه من أهل الاندلس لاستنقاذ البلاد ـ ولما لم تكن لهم قاعدة حربية بالأندلس يبثون منها الدعوة . ويزكون نار الثورة . استنزلوا صاحب « فاس » عن مدينة « رندة » بشفاعة ابن خلدون المؤرخ . ومنها غزوا « مالقة » فاستولوا منها علي « غرناطة » واسترد محمد ملكه ، وهرب اسماعيل وأخوه بالاموال والنفائس الي ملك « قشتالة » فغدر بهما وقتلهما وأخذ أموالهما .

وبعث محمد في طلب أهله ومخلفاته في فاس فأرسلت مع « ابن الخطيب » اليه ففرح السلطان محمد بقدومه ورد اليه مناصبه ومكانته من الدولة . إلا أنه رأى ثمة منافساً عظيماً له عند السلطان هو شيخ الغزاة « عثمان » فما زال يكيد له ويحذر السلطان بطشه حتى قبض عليه وأهله وأودعهم السجن ثم نفاهم عن البلاد . وخلا لابن الخطيب الجو ، وغلب على هوى السلطان وانفرد بالحل والعقد . فغصت به بطانة السلطان وحاشيته وخاصة « ابن زمرك » تلميذه وقد كان تولى الكتابة لابن الاحمر قبل قدومه — فتفننوا في السعاية به ، وما زالوا بالسلطان حتى أحفظوه عليه .

نكبته الثانية

فلما أحس (ابن الخطيب) منهم الشر ، أعمل الحيلة في الفرار الى السلطان (عبد العزيز) صاحب المغرب بتلمسان . وكان قد استدعاه اليه سراً من قبل ، فاستأذن سلطانه في الذهاب لتفتيش بعض السواحل ، ومن هناك عبر الى المغرب فتلقاه صاحبه بالترحيب ، وخاطب ابن الأحمر في إرسال أهله وولده إليه بالمغرب فبعث بهم اليه ، إلا أن ابن الخطيب جد في ترغيب عبد العزيز بانتزاع ملك الأندلس من بني الأحمر ، وعلم بذلك السلطان محمد بن الأحمر ، وطلبت إليه بطانته أن يعجل بنكبة ابن الخطيب قبل أن يستتم مراده وينفذ تدبيره ، وأخذوا يكيدون له كيداً ، فبعث ابن الأحمر إلى عبد العزيز قاضيا من قضاته الى المغرب لمحاسبة ابن الخطيب ومقاضاته على ألفاظ وقعت منه في كتاب « المحبة » توجب الكفر ، وطلب حكم الله فيه ، فصم عبد العزيز عن ذلك ، وأنف أن يخفر ذمته ، وقال لهم : (هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟) إلا أن السلطان عبد العزيز مات وخلف صبياً صغيراً ولاه وزيره ابن غازي الملك فخاطبه ابن الأحمر بمثل ماخاطب الملك المتوفى ، فأغلظ الرد ، فجرد ابن الأحمر جيشا لاجتياح بلاد السواحل التي لهم بالأندلس ، وأوعز إلى أحد أمراء بيت الملك من (بني مرين) أن يطالب بالملك ، وساعده في ذلك على شرط أن يتخلى عن أملاك (بني مرين) بالأندلس وأن يسلمه ابن الخطيب ، وأرسل لتأييده جيشا أندلسيا ، فتم للتأثر أمره ، وبويع سلطانا على المغرب ، وهو (أبو العباس أحمد المريني) وقبض على ابن الخطيب بأمر سليمان بن داود بن زمرك سفير بني الأحمر فأحضر في « المشور » في مجلس الخاصة ، وعرض بعض كلمات وقعت له في كتابه في (المحبة) فعظم النكير عليه فيها ، ووبخ ونكل به وامتحن بالعذاب ، يشهد ذلك الملأ ثم نقل الى محبسه واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه بكفره ، ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله . فطوقوا السجن ليلا ومعهم زعانفة جاءوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنقا في محبسه وأخرج

شلوه من الغد فدفن ، ثم نبشه السفهاء من قبره وجمعوا له حطبا وأضرموا عليه النار فاحترق شعره واسود جلده فأعيد الى حفرته ! وكان فى ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه الشنعاء التى جاء بها سليمان القائد وعدوها من هناته . وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه ودولته (١) وكان قتله سنه ٧٦٦ هـ .

ذكاؤه

كان ابن الخطيب أمة فى الذكاء وتوقد القريحة . ولا أدل على ذلك من نفوذ خاطره ونبوغه فى كثير من العلوم والصناعات: ما بين معقول ومنقول ومشهود ، وتفوقه على الأقران فى الاضطلاع بسياسة الملك ونجاحه فى سفاراته الى ملوك المغرب وملوك الاسبان وهو بعد شاب لم يكتمل شبابه حتى أعقب ذلك فيه شدة الأرق فقضى أكثر حياته لا ينام الليل إلا غراراً — على براعته فى الطب — حتى لقب بذى الحياتين، كما كان يلقب بذى الوزارتين وكما لقب بعد موته بذى القبرين لدفنه مرتين، ومع هذا الأرق الدائم لم ينحرف مزاجه وبقى سليم الحواس الظاهرة والباطنة، وأكثر مؤلفاته إنما دبجتها يراعته فى سكون الليل ، وخص النهار بتدبير شئون مملكة تكالب عليها الأعداء ، فهى منهم بالمقيم المقعد من تعبئة جيوش وارسال امداد وسفارات الى ملوك المغرب وأفريقية لاستنجادهم، وكيد للخصوم، ودفع لمكايدهم وتأثيل لثروة ، وإنشاء لقصور وبساتين ، مما لا ينهض بأعبائه إلا افذاذ الرجال وقليل ماهم.

أخلاقه

وكان ابن الخطيب عالى الهمة محباً للاستئثار بعالي الامور ومناصب السلطان والانفراد بالمجد ، وقد حمله ذلك على المركب الصعب فى حياته، فأدى ذلك إلى الافراط بالجد في العمل وتحصيل العلم حتى برز فى علوم وصناعات شتى حتى الطب ، وحتى التصوف ! ودفعه إلى مصاولة كل عظيم يتوهم أن يزاحمه عند السلطان في الجاه والرياسة، وعند الناس فى ذيوع الصيت ورفعة المنزلة ، فكان يكيد لهم عند السلطان حتى يجفوهم ، أو ينفيهم من بلاده ، أو يقلقوا هم من مكانهم فيزايلوا البلاد خشية نزول مكروه بهم . فأذكى نيران العداوة بينه وبين كثير من أهل الفضل ، فلم يألوه كيداً وسعاية ، ولم يألهم هو تجريحا وتعجيزاً وسباباً وهجاء وتجرد من نصفتهم فى تراجمه لهم فى كتبه على عكس إطنابه وإغراقه فى تقريظ أوليائه وصنائعه — فلم يكن مؤرخا عادلا فى حكمه . وممن نكبهم بسعايته عند ابن الاحمر « الغنى بالله محمد » شيخ الغزاة ، والمجاهدان « عثمان » وأبوه « يحيى » . وعثمان هذا هو الذى قام بنشر الدعوة

(١) عن ابن خلدون ملخصا

إلى إرجاع السلطان محمد إلى ملكه ، وقاد الجيوش على « مالقة » و « غرناطة » حتى فتحهما وأسقط اسماعيل وصهره المستبد عليه عن عروشهما ، وممن أقلقهم وأقض مضجعهم عن الأقامة بالأندلس ، صديقه الذى استدناه إلى الأندلس — ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ المشهور — عند ما رآه ينبل فى عين ابن الاحمر ، لوفرة علمه وأدبه وحسن تهذيبه وتوفقه فى نجاح سفارته عند ملك « قشتالة » (١)

ومن أخلاقه ما يخلق به أن يسمى منه رياء ، وهو انتحاله مذهب المتصوفة والزهاد والوعاظ فى كثير من رسائله وتآليفه ، وخاصة فى كتاب «المحبة» حتى لا تكاد تميز بين كلامه فيه ، وكلام أمثال شيوخ القوم من المغاربة : كابن عربى ، والقشيرى ، وأبى مدين — على رغبة شديدة فى تأثيل الثروة ، وترقية العيش ، وتولع بأنشاء القصور وغرس البساتين — حتى فى أيام نكبته ودار غربته ونشاط أعدائه فى الكيد حتى نعوا عليه ما أنشأه من الضياع والقصور والبساتين فى ظاهر مدينة فاس وأرباضها قبيل القبض عليه فى نكبته التى كانت فيها نفسه — وعدوا ذلك غفلة منه عن حوادث الزمان وأمنا لمكر الله .

وقد كتب القاضي ابن الحسن من أعيان « مالقة » من كتاب مطول بعث به الي ابن الخطيب بعد تحوله عن الاندلس الى فاس :—

« ... فشرعتم فى الشراء وتشييد البنا[illegible] ادلها دم اللذات . هيهات هيهات : تبنون ما لا تسكنون ، وتدخرون ما لا تأكلون ، وتؤملون ما لا تدركون . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة . فأين المهرب مما هو كائن ؟ ونحن انما نتقلب فى قدرة الطالب شرقتم أو غربتم ، والايام تتقاضى الدين وتنادى بالنفس الفرارة الى أين ؟ الي أين ... »

على أن لسان الدين نفسه يعظ غيره بأشد مما وعظ به ، كقوله :—

«... وانتم تدرون انكم فى أطوار سفر لا يستقر دون الغاية رحله ، ولا يتأنى معها إقامة ولا مهلة من الاصلاب ، الى الارحام ، الي الوجود ، الى القبور ، الى النشور ، الى احدى دارى البقاء . أفى الله شك ؟ فلو أبصرتم مسافرا فى البرية يبنى ويغرس ويمهد ويعرس ، ألم تكونوا تضحكون من جهله وتعجبون من ركاكة عقله ؟ ووالله ما أموالكم ، ولا أولادكم وشواغلكم عن الله التى فيها اجتهادكم الا بقاء سفر فى قفر ، أو إعراس فى ليلة نفر ، كأنكم فيها مطرحة تعبر فيها المواشى ، وتنبو عن خيرها المتلاشى . انما أموالكم وأولادكم فتنة [illegible] عنده أجر عظيم » ؟

«يتلى»

احمد السكندرى

(١) ذكر ذلك ابن خلدون فى سيرة حياته فى الجزء الثامن من تاريخه